خزانة
د. محمد نزار الدباغ

المعلومات النشرية للفصل
من كتاب
في التاريخ الإسلامي مواقف ودراسات
الدكتور عماد الدين خليل
مطبعة الزهراء الحديثة بالموصل
الطبعة الثانية
الموصل - ١٩٨٥
توزيع مكتبة بسام - الموصل
- العراق

خزانة
د. محمد نزار الدباغ

دراسات بلدانيّة

(ملاحظات في خطط الحلّة)

تعرضت بغداد في الثامن عشر من شهر محرم لعام ٦٥٦ هـ لهجوم القوات الترية بقيادة هولاكو ، واضطر قائد الخليفة العباسي إلى التراجع بجيشه الضئيل إلى قلب بغداد ، وتسلل عدد من الاهالي هاربين إلى الحلة والكوفة[١] . وخلال الحصار ارسل اهالي الحلة وفدًا علويًا إلى هولاكو ليلتمسوا اليه ان يعين لهم شحنة[٢] فاجابهم إلى طلبهم وارسل كلًا من «خان بوكله» والامير «بجلي النخجواني» ثم الحق بهما الامير التري «بوقا تيمور» لجس نبض اهالي الحلة والكوفة وواسط والوقوف على مدى اخلاصهم للتتر . وما ان وصل الوفد التري إلى مشارف الحلة حتى خرج اهلوها للاستقبال فاقاموا جسرًا على الفرات ، واعلنوا الافراح ابتهاجًا بقدوم التتر . ولما شاهد بوقا تيمور ترحيبهم واخلاصهم غادر الحلة في العاشر من صفر متوجهًا نحو واسط[٣] .

ما لبث التتر ان اخضعوا – في فترة قصيرة من الزمن – معظم انحاء العراق ، بعد ان قتلوا وفتكوا بعدد كبير من سكانه وخربوا مساحات

---

١) رشيد الدين فضل الله جامع التواريخ ، صفحة ٢٨٦ .

٢) هو الشخص المسؤول عن قضايا الأمن والادارة ، وهي وظيفة استحدثها السلاجقة . انظر : حسين أمين : نظام الحكم في العصر السلجوقي ، مجلة سومر/مجلد ٢٠/سنة ١٩٦٤ .

٣) رشيد الدين فضل الله ، المصدر السابق ، صفحة ٢٩٥ – ٢٩٦ .

واسعة من المواقع التي تصدت لهم . كما قتل معظم افراد البيت العباسي باستثناء البعض ممن استطاع الفرار والنجاة . ويمكن القول بأن المقاومة الجدية للغزو التتري بين سنتي ٦٥٦ و ٦٦٠ هـ لم تقم الا في الجانب الشرقي من بغداد ، وفي اربل وواسط والموصل [٤] .

وهكذا نجد ان مدينة الحلة لم تبد اية مقاومة للتتر ، ولم يلحقها ، بناء على ذلك ، الحرق والتخريب والتهديم في قليل أو كثير ، كما لحق المدن والمواقع الاخرى ، ومن ثم يمكن اعتبار هذه المدينة – من حيث خططها العامة – استمرارًا للعصر الذي سبق السيطرة التترية ، وان المصادر التي تصف خطط الحلة في الفترة السابقة هذه ، لابد وان تعطي ايضاحًا – في الخطط على الاقل – لتلك المدينة في الفترة التالية كذلك .

ومدينة الحلة حديثة العهد بالنسبة لمدن العراق الاخرى ، فبينما اسست البصرة والكوفة في مطلع القرن الاول للهجرة ، وانشئت واسط في النصف الثاني منه ، وبغداد في النصف الاول من القرن الثاني ، نجد الحلة قد اسست في اواخر القرن الخامس للهجرة . وهذه المدن جميعًا من نتاج الحضارة الإسلامية ، الا ان ما يميز الحلة عن المدن الاخرى في العراق ، ان تلك المدن انشئت بامر من خلفاء الدولة الإسلامية وتحت اشرافهم المباشر ، كما هو الحال في بغداد ، أو اشراف نواب عنهم كما هو الحال بالنسبة للبصرة والكوفة وواسط . اما الحلة فقد انشأها أحد الامراء المحليين ، وهو سيف الدولة صدقة بن منصور بن دبيس بن علي ابن مزيد الاسدي ، وكان يسكن هو وقبيلته من بني اسد في منطقة النيل المتفرع عن الفرات الاوسط ، فلما قوي امره واشتد ازره وكثرت امواله ، لانهماك السلاجقة بالحروب والصراع فيما بينهم ، انتقل باهله وعساكره

٤) جعفر خصباك الادارة الايلخانية في العراق «مجلة كلية الاداب ، حزيران ١٩٥٩ ، صفحة ٣٠ .

إلى منطقة تدعى «الجامعين» ، غربي الفرات ، ليبعد عن ملاحقة السلاجقة ، وذلك في مطلع عام ٤٩٥ هـ ، وكانت هذه المنطقة «اجمة تأوي اليها السباع» فاستقر بقبيلته هناك حيث بنى واصحابه المساكن الواسعة والدور الفاخرة ، وسرعان ما غدت مدينة واسعة من أفخر بلاد العراق وأحسنها . واخذ التجار يقصدونها من كل مكان ، وغدت قصبة تلك المنطقة [٥] . ومن هنا غدا اسمها : الحلة بعد ان كان يطلق على المنطقة اسم «الجامعين» . فكلمة حلة لغة : «القوم النزول وفيهم كثرة» [٦] .

لم يمضِ سوى وقت قصير على انشاء الحلة حتى تفوقت في أهميتها وعمرانها على مدينة اخرى كانت قد انشئت في العصر الاموي في منطقة الفرات الاوسط ، وسميت باسم بانيها «قصر ابن هبيرة» ، وغدت في القرن الرابع الهجري اكبر مدينة بين بغداد والكوفة ، واشتهرت بكثرة اسواقها ، الا انه ما ان بدأ القرن السادس الهجري حتى كانت قد انحطت وضعف شأنها بارتفاع شأن الحلة ، بحيث ان موضعها اليوم اصبح غير معروف ، وان اشارت اليها الخرائط كمجموعة من الخرائب شمالي بابل القديمة [٧] . ولعل تحول الفرات المتعدد في مجراه كان سببًا في ذلك .

كانت الحلة تقع على الجانب الايمن من فرع الفرات الذي كان يسمى آنذاك نهر سورا ، وسرعان ما علا شأنها بسبب وجود جسر عظيم معقود على مراكب متصلة ، وصار طريق الحج من بغداد إلى الكوفة يمر بهذا الجسر بعد ان بطل الطريق المار بقصر ابن هبيرة والذي كان قد آل حينذاك إلى الخراب [٨] . واغلب الظن ان هذا العامل الديني ، وهو

٥) ياقوت الحموي ، معجم البلدان ، ج ٢ ، صفحة ٢٩٤ – ٢٩٥ .
٦) المصدر السابق ، ٢/٢٩٤ .
٧) كي لسترنج ، بلدان الخلافة الشرقية ، صفحة ٩٧ – ٩٨ .
٨) المصدر السابق ، صفحة ٩٧ – ٩٨ .

الحج ، كان له اثره الكبير في السرعة التي تميز بها نمو هذه المدينة ، اذ ان موقعها على طريق الحج بالقرب من العاصمة بغداد جعل منها المحطة الكبيرة الاولى لقوافل الحجاج السنوية التي تجتمع في بغداد من مختلف انحاء العالم الإسلامي ، ثم تتجه إلى مكة – تحت اشراف نواب عن الحكومة – مارة بالحلة . ويسهب الرحالة ابن جبير في وصف تلك القوافل المارة بالمنطقة ذهابًا وأيابًا ، فيشير إلى ان الخليفة العباسي هو الذي امر بعقد الجسر على الفرات اهتمامًا بامر الحاج واعتناء بسبيله ، وكانوا قبل ذلك يعبرون بالمراكب ... «ومن مدينة الحلة يتسلل الحاج أرتالًا ، وافواجًا افواجًا ، فمنهم المتقدم والمتأخر والمتوسط ، لا يعرج المستعجل على المتعذر ولا المتقدم على المتأخر ، فحيثما شاؤوا من طريقهم نزلوا وأراحوا واستراحوا ...» ويذكر كيف ان كثرة القناطر المعترضة طريق الحجاج بين بغداد والحلة هي التي كانت تضطرهم إلى التفرق وعدم السير سوية ، ومن ثم يجدون في الحلة مجالًا واسعًا لاعادة تجمعهم وتنظم سيرهم من جديد تحت اشراف امير الحج الذي يعينه الخليفة لهذا الغرض ، والذي يقيم في الحلة – في كل موسم – ثلاثة ايام لتنظم مسير الحجاج[9] .

ان الذاهب إلى الحلة ، الان ، يجد على الضفة الغربية للنهر بقايا اسواق وخانات وبيوت قديمة تشير طريقة بنائها وتنظيمها وقدم آجرها إلى انها بنيت منذ عهد قديم يعود إلى عدة قرون . ولقد مر بنا شيء عن ظروف بنائها وتطورها . ومن ثم أخذت تنمو وتتسع بشكل تدريجي ، وقد ساعدها موقعها على ذلك ، فهي في منطقة خصبة كثيرة المياه كثيفة الزراعة ، بالاضافة إلى كونها تقع على خطوط المواصلات التجارية البرية والنهرية ، كما انها كانت – كما مر بنا – محطة مهمة لقوافل الحجاج القادمين من بغداد . وفوق ذلك كله لم تتعرض الحلة لهزات سياسية

٩) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ – ١٩٣ .

وعسكرية عنيفة كما حدث بالنسبة للمدن الاخرى كالبصرة على يد الزنج ، وبغداد والموصل على يد جحافل التتر .

وباستطاعتنا ان نلقي نظرة على خطط هذه المدينة ، في اواخر القرن السادس الهجري ، بحيث نستطيع تكوين صورة تقريبية لها ، هذه الصورة التي استمرت محتفظة بسماتها الرئيسية طيلة القرن السابع الذي هو مدار البحث . وعلى هذا ، فان الصورة التي قدمها ابن جبير اثر زيارته للحلة في اواخر القرن السادس ، تساعدنا على تصور معالم المدينة خلال القرون التالية ايضًا ، خاصة وان ابن بطوطة ، الذي زار المدينة خلال النصف الثاني من القرن الثامن الهجري ، قد قارب في وصفه إياها سلفه ابن جبير إلى حد كبير .

فالحلة «مدينة كبيرة ، عتيقة الوضع ، مستطيلة ، لم يبق من سورها الا حلق من جدار ترابي مستدير بها ، وهي على شط الفرات ، يتصل بها من جانبها الشرقي ويمتد بطولها»[10] ولم يقتصر عمران الحلة على الجانب الغربي من الفرات بل امتد فشمل بعض مساحات الجانب الشرقي كذلك[11] .

هذا هو أهم ما تقدمه لنا المصادر عن خطط الحلة . وعلى كل ، فان الذي يميز المدينة كونها ممتدة بشكل مستطيل على ضفاف النهر ، وانها كانت في البداية تقتصر على الضفة الغربية ، ثم اتسعت وامتدت إلى الضفة الاخرى حيث اقيمت دور السكن والاماكن العامة والاسواق ، وهكذا غدا نهر الفرات يخترق المدينة من وسطها . الا ان سكنى الجانب الشرقي جاءت في وقت متأخر نسبيًا ، اذ ان ابن جبير لم يتطرق لذكر شيء من ذلك . وعلى ما يظهر لم تكن الحلة ، اثناء زيارته لها في اواخر

١٠) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ .

١١) المستوفي القزويني : عن لسترنج ، المصدر السابق ، صفحة ٩٧ – ٩٨ .

القرن السادس الهجري ، قد شملت الضفة الاخرى . اما القزويني الذي ذكر ذلك فانه من معاصري ابن بطوطة «قبل منتصف القرن الثامن الهجري» . وهكذا راح هذا الجانب الجديد من الحلة يتسع ، حتى غدا – خلال عقود معدودة – ينافس إلى حد ما الجانب الغربي . ثم اننا نجد ان الحلة كانت تشابه بقية المدن الإسلامية في العصر الوسيط من حيث احاطتها بسور ، لم يبق منه في القرن السادس الهجري ، سوى بقايا جدار ترابي مستدير . وكان الامير سيف الدولة صدقة – مؤسس الحلة – قد بنى هذا السور من الطين[12] ليخلصها – إلى حد ما – من هجمات واخطار القبائل العربية المحيطة بالمنطقة .

كانت المدينة قوية العمارة ، وهذا ما يفسر وجود بقايا من آثارها حتى اليوم على الضفة الغربية للنهر . ويشير ابن بطوطة إلى كثرة هذه العمارة[13] ، وهذه الظاهرة ، بالاضافة إلى ازدحام السكان ، تشير إلى سعة الحلة وامتدادها – في فترة قصيرة – شمالًا وجنوبًا على نطاق واسع ، كما تشير إلى سبب اتخاذ الضفة المقابلة منطقة للسكنى . واذا ما اضفنا إلى ذلك كثرة حدائق النخيل في المدينة ، داخلًا وخارجًا ، وانتشار دور السكنى بين هذه الحدائق[14] ، عرفنا مدى سعة المدينة .

ان اشهر ما كان يميز الحلة – كمدينة كبيرة – انتشار بساتين النخيل في مناطقها المختلفة ، تلك البساتين التي شجع صدقة بن مزيد على زراعتها[15] ، بحيث غدت الدور محاطة بهذه الحدائق ، فكان ذلك سببًا لرطوبة هوائها ، واعتدال مناخها . وربما كان كل بيت – في الحلة –

١٢) ابن الجوزي ، المنتظم في تاريخ الملوك والامم ، ج.٩ ، صفحة ٢٣٦ .
١٣) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠ .
١٤) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، المصدر السابق ٢٢١ .
١٥) ابن الجوزي ، المنتظم ، ج ٩ صفحة ٢٣٦ .

يحتوي على مجموعة خاصة به من اشجار النخيل . كما كان سائدًا في بعض مناطق بغداد حتى العصر الحاضر . وقد تفصل كل بيت عن الاخر مجموعة من الاشجار . وبهذا لا يكون هناك اتصال مباشر بين البيوت مما يؤدي إلى كثرة الممرات والدروب وعدم تداخل مناطق السكنى مع بعضها . على العكس مما حدث بالنسبة للكوفة والبصرة على سبيل المثال . وربما كانت البيوت تشكل مجموعات متصلة مع بعضها . تفصل بين كل مجموعة واخرى حدائق النخيل . والدروب التي تتخللها .

واغلب الظن ان جسر الحلة كان يعد من اهم معالمها العمرانية . على الاقل بالنسبة للسواح الذين زاروها في تلك الفترة . حيث نجد كلًا من ابن جبير . وابن بطوطة من بعده . يسرع في استعراض المدينة وبيوتها ومعالمها بكلمات معدودة لينتهي بالجسر . حيث يسهب في وصفه فهو «جسر عظيم معقود على مراكب كبار متصلة من الشط إلى الشط . تحف بها من جانبها سلاسل من حديد كالاذرع المفتولة عظمًا وضخامة . ترتبط إلى خشب مثبتة في كلا الشطين تدل على عظم الاستطاعة والقدرة»[16] . وقد مر بنا كيف ان الخليفة العباسي امر بعقد هذا الجسر على الفرات اهتمامًا بالحجاج واعتناء بسبيلهم ، وكان هؤلاء ، قبل ذلك ، يعبرون بالمراكب . ويشبه ابن بطوطة الجسرين المعقودين ببغداد بجسر الحلة[17] مما يشير إلى مدى ضخامة هذا الجسر واهميته .

وتخلو المصادر من تحديد مكان السوق الرئيسي والمسجد الجامع . واغلب الظن انهما كانا أقرب إلى الضفة منه إلى الجهات الداخلية من المدينة ليكونا على مقربة من النهر الذي يشكل الطريق الحيوي للذهاب والاياب والنقل التجاري . كما انهما كانا متجاورين شأنهما في هذا شأن معظم

١٦) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ . ابن بطوطة ، تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠ .
١٧) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٣ .

المدن الإسلامية . ومن المقطوع به انهما كانا يقعان في الضفة الغربية التي انشئت الحلة في ربوعها ، وهي التي تمثل الجانب الأكثر أهمية وقدمًا واتساعًا من الضفة الشرقية . هذا وليس بين ايدينا ما يشير إلى اماكن المؤسسات الاخرى في الحلة وبخاصة دار الامارة . ولمدينة الحلة «اسواق حافلة جامعة للمرافق المدنية والصناعات الضرورية»[18] ، ولا ريب ان غنى المنطقة الزراعي وموقعها التجاري على شبكة من طرق المواصلات البرية ، وصلاحية نهرها لسير السفن صعودًا وهبوطًا[19] وكونها محطة لقوافل الحجاج العظيمة ، قد ادى جميعًا إلى نمو اسواقها بحيث غدت حافلة جامعة للمرافق والبضائع المختلفة ، وكانت الحركة التجارية في اسواقها مستمرة[20] وتهافت اليها التجار من كل مكان ومن ثم اصبحت من «افخر البلاد»[21] وتجب الاشارة – كذلك – إلى ان وجود عدد كبير من القبائل البدوية المحيطة بالمنطقة ادى إلى ان تغدو الحلة مركزًا تجاريًا لتبادل المنتجات بين المراكز البدوية والحضرية .

اما الصناعة فلابد وان تكون الحلة قد بلغت مرحلة بعيدة من الرقي في نشاطها الاقتصادي بحيث احتوت اسواقها عددًا كبيرًا من الصناعات الضرورية ، كما يشير كل من ابن جبير وابن بطوطة ، واغلب الظن ان الحلة كانت في هذه الفترة قد ورثت صناعات النسيج المختلفة وفنونها العريقة التي عرفتها منطقة الفرات الاوسط منذ قيام الحيرة في العهد الساساني ، وخاصة بعد ما لحق قصر ابن هبيرة من خراب ، اذ كان هذا الموقع هو المركز التجاري والصناعي في المنطقة قبل ظهور الحلة .

١٨) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن بطوطة ، تحفة النظار صفحة ٢٢٠ .

١٩) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٩٠ .

٢٠) ابن حوقل ، صورة الأرض ، صفحة ٢٤٥ «حاشية» .

٢١) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣٢٢/٢ (طبعة ليبزج) ، ابن بطوطة ، المصدر السابق صفحة ٢٢٠ .

فاذا ما انتقلنا إلى النشاط الزراعي ، وهو الاساس الحيوي لاقتصاديات معظم البلاد آنذاك ، فاننا سنجد الحلة والمناطق المحيطة بها بستانًا واسعًا لانتاج شتى الغلال والثمار بسبب خصوبة التربة ووفرة المياه وملاءمة المناخ ، فضلًا عن اهمية موقعها الذي يشجع على تصريف هذه المنتجات .

ويصف ابن جبير الطريق الصاعد من الحلة إلى بغداد بانه «احسن طريق وأجملها في بسائط من الارض وعمائر ، تتصل بها القرى – أي المراكز الزراعية – يمينًا وشمالًا . ويشق هذه البسائط اغصان من ماء الفرات تتسرب وتسقيها» . ويشير إلى ان هذه الارض كانت منبسطة على امتداد النظر وان الامن فيها منتشر[22] . وهذا ولا ريب من اهم العوامل المساعدة على ازدهار النشاط الزراعي في المنطقة . ولنستأنف رحلتنا مع ابن جبير على الطريق بين الحلة وبغداد إلى ان نصل «قرية تعرف بالقنطرة ، كثيرة الخصب ، كبيرة المساحة ، متدفقة جداول الماء ، وارفة الظلال «بأشجار» الفواكه ، من أحسن القرى وأجملها .... والفينا حصاد الشعير بهذه الجهات .... وقرى هذه الطريق – من الحلة إلى بغداد – على هذه الصفة من الحسن والاتساع ...»[23] والمنطقة بصورة عامة – فضلًا عن هذه الطريق – كثيرة القرى والمزارع والضياع والمراكز الزراعية[24] .

واهم ما كانت تنتجه هذه المنطقة هو الحنطة والشعير والارز[25] وقد بلغ انتاج الغلال هذا حدًا كبيرًا جعل المنطقة اشبه بمخزن لتزويد العاصمة

٢٢) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ – ١٩٠ .

٢٣) المصدر السابق ، صفحة ١٨٩ – ١٩٠ .

٢٤) انظر : ابن الوردي ، خريدة العجائب صفحة ٣٩ ، ورحلة ابن جبير صفحة ١٩٠ . والاصطخري مسالك الممالك ، صفحة ٨٧ .

٢٥) ابن خرداذبه ، المسالك والممالك ، صفحة ٨ ، ١٠ ، رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ – ١٩٠ .

بغداد بالغلال في اوقات الحاجة[٢٦] .

كما كانت تكثر في المنطقة زراعة الكروم[٢٧] وازدهر – كذلك – انتاج الفواكه المختلفة[٢٨] بسبب وفرة المياه وملاءمة المناخ . هذا فضلًا عن انتشار اشجار النخيل التي كانت تغل انواعًا مختلفة من أجود التموز[٢٩] كما انتشر في المنطقة نوع من القصب استخدم في بعض الصناعات المحلية[٣٠] وقد ساعدت كثرة الانهار والسطوح المائية على انتشاره . واعتمادًا على هذا الازدهار الزراعي وبخاصة انتاج الغلال ، فضلًا عن كثرة المراعي بسبب وفرة المياه ، انتشرت مهنة تربية المواشي والاغنام للاستفادة من منتجاتها في تنمية الدخل الفردي لعدد من سكان المنطقة ، تلك التي شهدت اعدادًا كبيرة من قطعان الماشية والاغنام[٣١] .

ادى هذا النشاط الاقتصادي التجاري والصناعي والزراعي إلى زيادة سكان مدينة الحلة «وازدحامها بالخلق» [٣٢] وهنالك نص طريف يورده ابن جبير ، يشير إلى مدى ازدحام المنطقة المحيطة بالحلة بالسكان حيث يقول «رحلنا واجزنا جسرًا على نهر يسمى النيل – يقصد جسر الحلة – وكان عليه ازدحام ، فغرق كثير من الناس والدواب في الماء ، فتنحينا مريحين إلى ان انفرج ذلك المزدحم وعبرنا على سلامة وعافية

---

٢٦) ابن القوطي ، الحوادث الجامعة ، صفحة ٤٤٧/٣٣١ .
٢٧) البكري ، معجم ما استعجم ، ج ١ صفحة ٢٨٠ ، ياقوت (طبعة ليزج ٤٤٧/١ ، ١٨٥/٣) .
٢٨) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٩١ .
٢٩) ابن الجوزي ، المنتظم ، ١٤/٩ ، رحلة ابن جبير ، صفحة ١٨٩ ، ابن القوطي ، الحوادث الجامعة صفحة ٢٧٧ . ابن بطوطة ، تحفة النظار صفحة ٢٢٠ .
٣٠) ابن الجوزي ، المنتظم ٢٧/١٠ .
٣١) المصدر السابق ٢٩/٨ .
٣٢) ابن حوقل ، صورة الأرض ، صفحة ٢٤٥ (الحاشية) .

والحمد لله» ! ! [٣٣] .

ويشكل العرب الغالبية العظمى لسكان الحلة التي تقع في منطقة يقطنها عدد من القبائل العربية كبني اسد وبني عقيل وبني عبادة وبني خفاجة ، فضلًا عن ان نشأة الحلة واتساعها تم على يد امراء المزيديين من بني اسد الذين حكموا المنطقة فترة طويلة واعتمدوا على العرب إلى حد كبير . وإلى جانب العرب كان هناك عدد لا بأس به من الاكراد [٣٤] واليهود حيث يشير الرحالة اليهودي بنيامين التطيلي الذي توفي في العقد السابع من القرن السادس الهجري ، إلى ان عددًا من اليهود يبلغ زهاء عشرين الفاً كان يسكن بابل القريبة من الحلة[٣٥] هذا كما ان هناك عددًا من الأماكن اليهودية المقدسة كانت منتشرة في المنطقة ، كما كانت مدينة «قصر ابن هبيرة» كثيرة اليهود . ولما اندثرت هذه المدينة ، واتسعت الحلة على حسابها نزح كثير من سكانها – بما فيهم اليهود – واستقروا هناك ، منذ ذلك الوقت ، وهذا يفسر السرعة التي ازدهرت بها اسواق الحلة وفعالياتها الاقتصادية .

ومعظم سكان الحلة كانوا يدينون بالمذهب الامامي «الاثني عشري» ، وهم ينقسمون إلى طائفتين احداهما تعرف بالاكراد والاخرى تعرف باهل الجامعين ، «والفتنة بينهم متصلة والقتال قائم ابدًا» [٣٦] وتورد المصادر عددًا من الروايات عن قداسة منطقة الحلة في نظر سكان تلك الجهات

---

٢٣) رحلة ابن جبير ، صفحة ١٩٠ .
٣٤) ابن بطوطة ، صفحة ٢٢٠ ، وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ٦٠/٨ ، ٨٨ ، ٢٠٥ .
٣٥) رحلة التطيلي ، صفحة ١٤٠ – ١٤١ وانظر ابن الجوزي ، المنتظم ٣٨/٩ ورشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، صفحة ٣٢ . ويتطرق ابن الساعي في كتابه «الجامع المختصر» صفحة ٦٥ إلى وجود بيت يهودي في الحلة هو بيت كمونة اليهودي وانه من البيوت المشهورة في القرن السابع الهجري .
٣٦) ابن بطوطة تحفة النظار ، صفحة ٢٢٠ .

وانتشار الاضرحة والمقامات فيها . فهنالك على مقربة من شواطىء الفرات بين الحلة والكوفة قرية تذكر الروايات ان النبي الاسرائيلي حزقيال مدفون بها ، وقد ابدى اليهود دائمًا تقديسهم الشديد لهذا الضريح ، فكانوا يحجون اليه ويقدمون له الصدقات الوافرة[٣٧] . وفي مدينة الحلة نفسها انتشرت مشاهد «الجمجمة» ، والشمس ، والجامعان ، وعلي بن ابي طالب رضي الله عنه . وإلى اسفل من الحلة قرية تدعى «شوشة» يقبع فيها قبر أبي القاسم ابن موسى بن جعفر «رضي الله عنهم»[٣٨] .

تأثر سكان الحلة بالاعتقادات السائدة حول الاضرحة والمزارات ، واصبحت لهم بالتدريج مجموعة من العادات والتقاليد المذهبية ، منها خروج مائة رجل من اهل المدينة كل مساء بكامل اسلحتهم ، حيث يتجهون إلى امير المدينة بعد صلاة العصر فيأخذون منه فرسًا مسرجًا ملجمًا أو بغلة «فيضربون الطبول والبوقات امام تلك الدابة ، ويتقدمها خمسون منهم ، ويتبعها مثلهم ، ويمشي آخرون عن يمينها وشمالها ، ويأتون مشهد صاحب الزمان فيقفون بالباب ويقولون : باسم الله أخرج . قد ظهر الفساد وكثر الظلم ، وهذا أوان خروجك ، فيفرق الله بك بين الحق والباطل . ولا يزالون كذلك ، وهم يضربون الابواق والطبول إلى صلاة المغرب . وهم يقولون ان محمدًا بن الحسن العسكري دخل المسجد وغاب فيه ، وانه سيخرج ، وهو الامام المنتظر عندهم[٣٩] ويشير ابن بطوطة إلى ان اهل الحلة كانوا متطرفين في اعتقادهم المذهبي وانهم «رافضة غالية» . وكذلك الحال بالنسبة لعدد من القرى القريبة من الحلة[٤٠] .

---

٣٧) رشيد الدين فضل الله ، جامع التواريخ ، صفحة ٣٢ .
٣٨) الهروي ، الاشارات إلى معرفة الزيارات ، صفحة ٧٦ .
٣٩) ابن بطوطة ، المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ – ٢٢١ .
٤٠) المصدر السابق ، صفحة ٢٢٠ – ٢٢١ .

غدت الحلة في وقت قصير – بعد بنائها – عاصمة للمنطقة الوسطى من العراق ، وقضت على شهرة واهمية المدن الاخرى في المنطقة كالكوفة وقصر ابن هبيرة وغيرهما . وقد حكمت في هذه المدينة ، منذ تأسيسها عام ٤٩٥ هـ ، اسرة بني مزيد الاسدية حكمًا ذاتيًا ، فترة تزيد على نصف القرن[٤١] ، ظهر خلالها عدد من الامراء المزيديين الذين كان لهم دور في الاحداث السياسية التي شهدها العراق طيلة هذه الفترة . وقد ساعد وجود هذه الامارة في الحلة على نمو هذا المركز في شتى المجالات العمرانية والدينية والبشرية والاقتصادية . حيث مرت الحلة في عهد هذه الاسرة – رغم طابعها البدوي – في فترة من الهدوء والاستقرار مهدت لنمو مرافقها المختلفة .

وفي عام ٥٥٩ هـ . وجهت الضربة الاخيرة لبني مزيد الاسديين في الحلة . حيث توجه اليهم الخليفة العباسي المستنجد بالله على رأس قواته . وتمكن من اجلاء بني اسد – وبضمنهم المزيديون – عن المنطقة ، بمساعدة بعض القبائل المجاورة[٤٢] لذا نجد المدينة تغدو . بعد هذا الهجوم ، مجالًا لتحكم القبائل العربية المجاورة .

وفي اثناء زيارة ابن بطوطة للعراق ، في اواخر العقد الثالث من القرن الثامن الهجري ، اشار إلى مدينة الحلة بقوله : «كان قد غلب عليها ، بعد موت السلطان – الايلخاني – ابي سعيد ، الامير محمد بن رميثة ابن ابي نمي امير مكة . وحكمها اعوامًا ، وكان حسن السيرة يحمده اهل العراق ، إلى ان غلب عليه الشيخ حسن – الجلائري – سلطان العراق .....»[٤٣] .

---

٤١) انظر زامباور ، معجم الانساب والاسرات الحاكمة ، مجلد ٢ ، صفحة ٢٠٧ – ٢٠٨ .
٤٢) ابن الاثير ، الكامل ، ١١/١١٩ – ١٢٠ .
٤٣) تحفة النظار ، صفحة ٢٢٢ .

وهكذا تقلبت الحلة بعد سقوط بني مزيد في ايد عديدة إلى ان غدت جزءًا من ممتلكات الدولة الجلائرية التي قامت في العراق على انقاض الايلخانيين قبيل منتصف القرن الثامن الهجري . وكانت حتى ذلك الحين من الاهمية والسعة بحيث جذبت اليها انظار الرحالة والجغرافيين ، فخصصوا لها فقرات من تصانيفهم لوصفها وتوضيح معالمها .

أهم المصادر

١ – الاصطخري : أبو اسحق ابراهيم بن محمد «ت ٣٤٦ هـ» .
مسالك الممالك : نشر دي غوية ، بريل – ليدن ، ١٩٢٧ .

٢ – ابن بطوطة : محمد بن عبد الله اللواتي «ت ٧٧٩ هـ» .
تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار : بيروت ، دار صادر – ١٩٦٠ .

٣ – البكري : أبو عبد الله بن عبد العزيز البكري «ت ٤٨٧هـ» .
معجم ما استعجم من اسماء البلاد والمواضع : تحقيق مصطفى السقا ، لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ١٩٤٥–١٩٥١ .

٤ – بنيامين : ابن يونه التطيلي الاندلسي «ر ٥٦١–٥٦٩ هـ» .
الرحلة : ترجمة عزرا حداد ، المطبعة الشرقية ، بغداد – ١٩٤٥ .

٥ – ابن جبير : أبو الحسين محمد بن احمد الأندلسي «ت ٦١٤ هـ» .
الرحلة : دار صادر ، بيروت – ١٩٥٨/١٩٥٩ .

خزانة
د . محمد نزار الدباغ

٦ – ابن الجوزي : ابو الفرج عبد الرحمن «ت ٥٩٧ هـ» .
المنتظم في تاريخ الملوك والامم : مطبعة دائرة المعارف ، حيدر آباد ، ١٣٥٨ .

٧ – ابن حوقل : ابو القاسم محمد بن علي «ت ٣٦٧ هـ» .
صورة الأرض : نشر دى غويه ، ط ٢ ، ليدن – بريل ١٩٣٨ .

٨ – رشيد الدين : فضل الله الهمذاني «ت ٧١٨ هـ» .
جامع التواريخ : وزارة الثقافة والارشاد القومي ، القاهرة – ١٩٦٠ .

٩ – ابن الفوطي : ابو الفضل عبد الرزاق «ت ٧٢٣ هـ» .
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المائة السابعة : المكتبة العربية ، مطبعة الفرات ، بغداد – ١٣٥١ هـ .

١٠ – الهروي : ابو الحسن علي «ت ٦١١ هـ» .
الاشارات إلى معرفة الزيارات : تحقيق سُورديل ، دمشق – ١٩٥٣ .

١١ – ابن الوردي : عمر بن مظفر بن عمر «ت ٧٤٩ هـ» .
خريدة العجائب وفريدة الغرائب : المطبعة الشرقية مصر – ١٣١٤ هـ .

١٢ – ياقوت الحموي : شهاب الدين أبو عبد الله «ت ٦٢٦ هـ» .
معجم البلدان : بيروت ، دار صادر – ١٩٥٧ ، ليبزج ١٨٦٦–١٨٧٠ «تحقيق فستنفلد» .